السِلم والمصالحة والتضامُن

عبد الرحمن السالمي

يقرن القرآن الكريم المصالحة والتضامُن والتوحُّد بالسلم والتفاهم والتغيير السلمي، بمعنى أنَّ التطور السليم والبنّاء ينبغي أن يكون سبباً للوحدة والتضامن. يقول تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103]. فقد كان المكيون واليثربيون قبائل وبطوناً متنازعةً ومتنافسةً ومتصارعة، ثم اعتنقوا دعوة النبي ﷺ وهي تغييرٌ كبيرٌ، فصاروا بنعمة الله إخواناً متحابين ومتضامنين. وهكذا فإنّ التضامُن جاء ثمرةً للتغيير الذي هو الإيمان، والاقتناع بقيم الإسلام والدخول في أُمته، وقد كان التنازع السابق ليس سببه الهوى الدنيوي وحسْب؛ بل وعدم وجود الجذر الأيديولوجي إذا صحَّ التعبير. ولذلك انقسمت آية النعمة إلى قسمين: قضية الوحدة ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ ونعمة الأُخوة، وقضية الاعتصام وسبيله المجازي: حبل الله. وقد اختلف المفسِّرون في

معنى: حبل الله، بين القرآن والجماعة والسلطان. وهذا الاختلاف لا يعود إلى الأصل اللغوي لمفرد (حبل)، بل إلى ما ورد في الآية من فوائد دنيوية وأُخروية، ففي الفوائد الأُخروية لا شكَّ أن القرآن هو الذي تتأسسُ عليه النجاة، وأما الفوائد الدنيوية فإنها ترتبط ولا شكَّ مباشرةً بالجماعة والسلطة السياسية. ومن معاني الجماعة: الإجماع، والسواد الأعظم أو الرأي العام. فإذا اجتمع الأمران: السلطة الواحدة القوية والجماعة المؤتلفة والوادعة في ظلّ سلطة العدل والرحمة؛ فإنّ التغيير الذي ذكره الله سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11] يكون قد تحقّق على خير وجه.

تفسد إذاً أحوال الجماعات، وتتشرذم صفوفها، وتشيع بينها العداوات، والتظالُم مع السلطات، وبذلك يصبح الطريق للإصلاح من خلال التغيير ضرورياً. بيد أنّ التغيير الذي يُصلح الأمور أو يعيدها إلى نصابها ينبغي بحسب القرآن ومفسِّريه، أن تتوافر له ثلاثة شروط: أن تكون إرادة التغيير صادرةً عن الداخل، داخل الأفراد والجماعات ـ وأن يكون من أهدافه التصالُح بين الناس، وأن يعودوا جماعةً واحدة ـ وأن يُنشئ هؤلاء المتصالحون أو يدعموا حكماً صالحاً. والتغير النفسي الداخلي معروف المعنى، وقد تحدث عنه الكتاب الكريم في معارض وسياقاتٍ أُخرى. فقد قال في معرضٍ آخر: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: 25]. ومعنى هذا أنّه ينذُرُ أن يشارك المجتمع كلُّه في الفساد والإفساد. إنما الذي يحصل أن تُفسد الأُمورَ قِلّةٌ لا تلبثُ أن تطغى إذا صبر عليها الآخرون أو خضعوا لغَلَبتها. والله سبحانه وتعالى يُنذر الجميع بأنّ هذه الغَلَبة إنْ كانت من جانب القِلّة، فهم غير معذورين، لأنّ الضرر من الفساد نازلٌ بالجميع. وهكذا يكون الجميع مسؤولين عن المبادرة للتغيير في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وبالأساليب والطرائق السلمية ما أمكن، وتعقُبُ ذلك مباشرةً إجراءات وترتيباتُ التصالُح والتوادّ وإعادة اللُّحمة، بحيث يمكن اعتبارُها جزءًا من التغيير بالفعل، لأنّ التغيير المذكور

في القــرآن الكريم هو تغييــر العقليــات والذهنيات والــرؤى والإقبال على الرحمة والتعارُف والمسالمة: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجـرات: 9]. المفكرون يتحدثون بعد الثورات عن «العدالــة الانتقالية»، والقرآن يتحدث عن «الصُلْح» في الآية العجيبة مرتين. والصلــح يتطلب عدالة، لأنّ القرآن يذكر القِسْــط أي الإنصاف مرتين أيضاً. لكنّ الصلح في رؤية القرآن أعلى من العدل في القيمة، لأنه تجاوُزٌ إنســانيٌّ وأخلاقيٌّ كبير، وقد جرّبه النبي صلواتُ اللّه وســلامُهُ عليه مرتيــن، ولم يتحقّق ما أراده فــي المرة الأولى، ليس بسبب إصرار القرشيين المكّيين، بل بسبب إعراض أصحابه. فقد أنجز مع القرشيين صُلْح الحديبية، وكان هذا هو تفضيلُهُ، كما هو تفضيل القرآن الكريم في الجــزء الأول من الآية، أي أنه صُلْحٌ مــن دون قتال. وقد غضب أصحابه صلواتُ اللّه وسلامُهُ عليه كما هو معروف، لأنهم لم يكونوا يتصورون أن تذهــب جرائم قُريش من دون عقوبة، لكنه أنجزه بعد فتح مكة مباشــرةً وبموافقة الطرفين: خصومه من قُريش، وأصحابه من المهاجرين القرشيين. وقد أعرض الأنصار بعض الشيء خشيةً منهم أن يبقى النبيُّ في مكة ما دام قد تصالح مع بني قومه. لكنه عليه الصلاةُ والســلام قــال لهم: «**بل الدمَ الدمَ والهدْمَ الهدمَ، أنا منكم وأنتم مني. لو ســلك الناسُ جميعاً شِــعباً وسلك الأنصار شعباً أخر لســلكْتُ شِعب الأنصار**». يؤدي التغيير أحياناً إلى دمٍ وخراب. لكنه لو اقتصر على ذلك لما كان تغييراً، بل هو استمرارٌ لحالة التشــرذُم والانقســام والاقتتــال. فالصلح في نظــر القرآن أو عــودة الأخوة والتراحُــم والتضامُن هو دليلٌ علــى حدوث التغيير وســواده، وليس انتصاره باللغــة القتالية. ولــو اقتصر الأمر علــى الانتصار العســكري لصــار غَلَبةً لا تستقيم على طول المدى بين أمتين أو دولتين، فكيف تستقيم بداخل الأُمة الواحدة، والمجتمع الواحد، وهذا هو سرُّ أو معنى الرُعْب الذي عرفه تُراثُنا من «الحرب الأهلية» (= الفتنة).

يقتضي «الصُلُـح» إذاً أو المُصالحة بالتعبير الحديث قسـطاً وإنصافاً لمن نزل به ظُلْمٌ قبل التغيير وأثناءه. وهذا الإنصاف هو تمهيدٌ لاسـتتباب «حبل اللّه» من جديـد، وحبلُ اللّه هـو «الجماعةُ» أو الوحـدة الاجتماعية والسياسـيةُ العائدة، في ظلّ سـلطةٍ قويةٍ وواحدةٍ وتصالحية تأسو الجراح، وتأخذ للضعيف من القوي وتأمنُ بها السُـبُل، ويُجاهَدُ بها العدوّ، بحسـب تعبير أميـر المؤمنين علي بن أبـي طالب. فالناسُ لا يهربـون من «المُلْك العَضوض» ليقعوا في الحرب الأهلية أو الشـرذمة والفوضى. وإنما يعملون جميعاً من أجل سلطةٍ تحوطُهُم وتدفعُ عنهم بالعدل والرحمة (وهما القيمتان اللتان يجمعُهما مفردُ الصُلْح القرآني). وكما أنّ التراحُمَ يسودُ بالداخل بين النـاس بعد الخروج مـن الظلم والنزاعات؛ فـإنّ التعارُف يشـملُ الداخل والخارج المُجاور والعالمي. فالتعارُفُ هو القيمةُ التي تتأسَّس عليها جماعةُ المؤمنيـن ومجتمعاتهـم. لأنهـا تعنـي اعترافـاً بالاختلاف في المشـارب والمصالـح والتصالُح والتلاقي على أسـاسٍ من ذلك الاعتـراف، وعندما ينتظم هـذا الصُلْح التعارُفي بالداخـل، يصبحُ مألوفـاً أو ممكناً مع الآخر الديني أو السياسـي بالجـوار والعالم. وبالتعـارُف الذي يُحـدثُ تفاهُماً بالداخل، وآخَرَ مع الخـارج، يكونُ التغيير قد اكتمـل. وهذا الاعتبار يجعلُ مـن التغيير «عمليـةً» وليس انقلابـاً كما يفعـلُ كثيرون عندمـا يتمدحون بالثورات. ودائمـاً يكونُ علينـا إذا أردْنا فهم منطق القـرآن أن نرجع إلى تقريـره ﷻ أنّ اللّه لا يغيّـر ما بقومٍ حتى يغيّـروا ما بأنفُسِـهِمْ. فالعملية الدؤوبة والصعبة هي عمليةٌ تربويةٌ وترويضيةٌ عميقة وطويلة الأمد. ذلك أنّ نفسيةَ الإنسـان أو عقليتَهُ لا تتغير بين عشيةٍ وضُحاها. وإذا كان هذا الأمر صعباً ومُضنياً إذا تعلّق بالأفراد، فكيف إذا تعلّق الأمر بالجماعات الكبيرة. وهكذا فـإنّ التغيير يبدأُ ذاتياً وداخلياً ثم يتجـاوز الفرد إلى المجتمع كما يقول توماس كـون عن الثورات العلميـة. فعندما يحدث تقدم أساسـي في الفيزيـاء مَثَلاً يبدو كأنـه مُفاجئ أو بالمصادفـة، بينما الواقـع أنّ تغيير «البراديغمات» يتمُّ عبر سـنواتٍ وأحياناً عبر أجيال مـن التجربة والخطأ.

ولا يخلو الأمر من أحـداثٍ زلزالية، إنما حتى في حالــة الزلازل صار من الممكن التنبؤ بها بمعرفة شــروطها وأماراتها الطبيعية، فهي اســتثناءٌ من ناحية، و«عملية» تطورية أو تدرجية من ناحيةٍ ثانية.

وهذا كُلُّهُ يعنــي أنّ التغيير هو ظاهرةٌ طبيعيــةٌ إذا صحَّ التعبير. وإذا كانت مســاربُها مفتوحةً فــإنّ الأمر لا يحتــاج إلى ثــورانٍ وزلازل. وهذا الاعتبــار كما يصدُقُ فــي الطبيعة، قد يصــدقُ في المجتمعــات والأنظمة السياســية. فعندما تســتجيب الأعــراف الاجتماعية والتقاليد السياســية للتحديات بسلاســةٍ، يمكن أن تتمَّ عمليةُ التغيير نحو الأفضل من دون أن يلاحظَها الناسُ إلّا بعد مدة. لكنْ عندما تكونُ مساربُ التغيير مقفلةً؛ فقد يحدث انفجــارٌ أو انفجاراتٌ فــي الطبيعة كما في المجتمعــات والأنظمة. وهذا مــن دون أن نتجاهل الفروقَ الأساســية بين عالــم الطبيعة وعالم الإنســان. وهذه الانســدادات المتطاولةُ المدة هي التي تجعلُ من التغيير عمليةً صعبةً، وعندما تحدثُ في ظل ظروف الانسداد تجلبُ معها مشكلاتٍ وعُنفاً هائــلاً، كما حدث ويحدث فــي بعض البلدان العربيــة. وهناك مَنْ يقول اليــوم إنّ مصاعب التغيير التــي ظهرت تعود لتلك الانســدادات أو لعــدم التهيُّؤ (= التغيير النفســي والذاتي والاســتعداد) أو أخيراً بســبب التدخلات الخارجية. وهذه التعليلاتُ كلُّهــا واردة وإن أمكن أن يتقدم في الاعتبار سببٌ على سبب للتمايز بين البلد والآخر.

يتمُّ التغيير بحسب النصّ القرآني للانتقال إلى حالةٍ أفضل. ويهيئ له أو يسبقُهُ التغيير النفســي على مســتوى الأفراد والجماعات. وتتوقفُ سرعةُ النجاح أو تأخُّرُ ذلك تبعاً لشــروطٍ داخليةٍ وخارجيــة تتباينُ أو تتقاربُ في التصعيب أو التسهيل. إنما في كلّ الأوقات ومختلف الظروف، ينبغي أن يكونَ الهدف الوصول إلى انتظامٍ اجتماعيٍّ وأخلاقيٍّ وسياســي، تتمُّ في ظلّ سواده عمليــات التصالُح والتآخي والمــودّة والتضامن، والتعــارُف المتجدد بداخل المجتمعات ومع العالَم.